تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

جناية الفلسفة على العقول

جناية الفلسفة على العقول أمر لم نكن نؤمن به حتى أثبت لنا الدكتور الأهوانى أنه حقيقة لا تقبل الجدل ... إذا لم تصدق فاعلم أن هذا (الفيلسوف) قد آثر أن يشكونا إلى النيابة العامة بدلا من أن يشكونا إلى روح طيب الذكر رينيه ديكارت !

وجناية الفلسفة على العقول قد تحققت بالنسبة إلى الدكتور الأهوانى مرتين : الأولى حين أوهمته (فلسفته) أنه يستطيع أن يكون أديباً يشارك فى هذا الذى يشارك فيه الأدباء ، وناقدا يخوض فى هذا الذى يخوض فيه النقاد ... والثانية حين ألهمته هذه الفلسفة أن لقاءنا فى ساحة النيابة أسلم عقبى له من لقائنا على صفحات الرسالة ! ولم يفكر الدكتور الأهوانى طويلا لأن منطق الفلسفة الأهوانية لا يعترف بمبدأ الإحجام عن أى أمر من الأمور ... ومن هنا قرر (الفيلسوف) أن يكون أديباً رغم أنف النقاد ، وعلى الذين لا يعترفون بمكانته الأدبية أن يواجهوا النيابة العامة !

ولم يكن هناك بد من أن نواجه النيابة العامة ، أتدرى لماذا ؟ لأننا لم نشر إلى « الفيلسوف الأديب » بأطراف البنان وإنما أشرنا إليه بأطراف اللسان ... ولعلك قد أدركت بفطنتك ما تحمل الإشارة الأخيرة من معان !!

وننتقل بك إلى مرحلة التحقيق أو مرحلة العقوبة والتطبيق ... ولا تعجب إذا قلنا لك إننا قد رغبنا إلى المحقق فى أن يمهلنا بعض الوقت ، ليكون للضحك الساخر أو للسخرية الضاحكة أوفى نصيب ! وكيف لا نضحك والدكتور الأهوانى يدفعنا إلى الضحك دفعاً ويفرضه علينا فرضاً وكأنما يريد أن يشغلنا بفكاهاته عن حر الصيف ووطأة الصيام ؟ سمها إن شئت فكاهة الفلسفة أو فلسفة الفكاهة .. وقد تتفلسف الفكاهة أحيانا فلا تعبأ بمنطق ولا تؤمن بقاعدة ولا تخضع لشىء من هذا الذى تخضع له العقول !

هذه الفكاهة المتفلسفة عمادها فى شكوى الدكتور الأهوانى أننا قد تهجمنا على مكانته العلمية وأستاذيته الجامعية ، وأنه لا تكافؤ بين الناقد والمنقود ... فالناقد أنور المعداوى ليس دكتوراً حتى يحق له أن يتهجم على دكتور فى الآداب ، وليس أستاذا فى الجامعة حتى يحل له أن يتطاول على أستاذ فى الجامعة ، وفى هذا الاعتداء المعنوى ما يعاقب عليه القانون أو ما يجب أن يعاقب عليه ! تواضع عظيم . وحسبك دليلا على هذا التواضع أن الدكتور الأهوانى لم يشأ أن يتشدد مع النقاد ، ولو شاء لطلب إلى النيابة العامة أن تطبق القانون على كل ناقد يتعرض له . إذا ثبت أن هذا الناقد لم يحصل على جائزة نوبل فى الآداب !

تجازى البحيرة عن صنعها   وتزكو الصنيعة بالشاكر
كقائد جيش لدى موكب   يرد التحية للعسكر
تباركت يارب من مبدع   تجلى بآيك للمنكر
وقصر تسامت له روعة   بعد خيالات « للأقصر »
كخاطب قوم سما منطقا   يسوق العظات على المنبر
به ما اشتهيت وفوق المنى   فخاطب مناك وقل أقصرى
بخدمة قوم صباح الوجوه   هو غرة فى بنى الأصفر
على أدب زان منهم حجى   يقل الثناء على المكثر
تألق فيه وداد مضى   فناج الودود به واذكر
فعينى تقسر برقه المصيف   وقلبى يهفو لديسمبر
إذا المرء جادك حين الضنا   فبعك حتم لكى تشترى
كذا العمر جدب بغير الوفاء   فلا تنس العيش للغادر
« فدلدر » تحنو على « زوريخ »   « وزوريخ » تزهو على « دلدر »(١).

محمد محمود جلال

(١) فندق « دلدر » يقع على ربوة تعلو مدينة زيورخ بمائتى متر وهى ترتفع « أى زيورخ » أربعمائة متر — وبهذا الفندق قضيت الأيام التى تعقب العلاج عادة بمياه يلوبير فى فرنسا وكان قد مضى على وقت طويل لم أقل شعرا ، وكان هذا المكان موضع الالهام

تواضع عظيم لا شك فيه ... ومنطق عظيم لا شك فيه أيضا ... وآية العظمة فى هذا المنطق أن كاتبا له مكانته كالأستاذ العقاد لا يجوز له مثلا أن ينقد صاحب الفلسفة الأهوائية ، لأن شرط التكافؤ بين الناقد والمنقود يارعاك الله .. غير موجود . ولا يستطيع الأستاذ العقاد أن يدعى بأنه دكتور فى الأدب أو دكتور فى الفلسفة ، أو يزعم بأنه أستاذ فى جامعة فؤاد أو جامعة فاروق ... هكذا تريد لنا الفلسفة الأهوائية

دكتور فى الفلسفة وأستاذ فى الجامعة ... هذا حق لا يمكننا أن نجادل فيه ، ولكن بقى حق آخر لا يحتمل المناقشة ، وهو أن « الدكتوراه » التى يحملها الدكتور الأهوانى كانت أول دكتوراه فيما نعلم يحصل عليها صاحبها مجردة من مراتب الامتياز ودرجات التفوق ... ترى هل يستطيع أن يجادلنا فى هـــذا الواقع الذى شهدناه بأعيننا يوم أن نوقشت رسالته ، وقد كانت عن « التعليم فى رأى العابسى » ؟ !

أعلم الظن أنه لا يستطيع .. ومع ذلك فهو دكتور يزهى علينا بالدكتوراه ، وأستاذ فى الجامعة يفخر علينا بالأستاذية ، ثم لا يجد ضيرا من أن يجهر بعدم التكافؤ بين الناقد والمنقود .. أو بين المداوى والأهوانى !!

إن الحصول على الدكتوراه فى مصر ليس أمراً عسير المنال كما تتوهم الفكاهة المتفلسفة ، وبخاصة إذا روعى فى الحصول عليها ذلك « التواضع » الذى يحرص على أن تكون الألقاب العلمية مجردة من تفوق المراتب والدرجات ...

هذه كلمة نرجو أن يقرأها الدكتور الأهوانى بعناية ... ونحن فى انتظار بلاغ آخر يتقدم به إلى النيابة العامة !

أزمة القراء وعصا الأستاذ الحكيم

« قالت العصا : هل رأيت هذه المكتبة العامرة بالكتب فى أشهر ميادين القاهرة ، كيف تحولت أخيرا إلى حانوت للمرطبات ؟! إن صاحبها هو صاحبها لم يتغير . ولكنه قلب نفسه بكل بساطة من « كتبى » إلى « شربتلى » ! .. وعندما سئل فى ذلك قال : الناس لا يريدون اليوم عسير الذهن .. إنهم يريدون عسير الليمون !

قلت : هذا صحيح مع الأسف .. وهى ظاهرة خطيرة تستحق العناية والعلاج .. فان انصراف الناس عن غذاء العقل نكبة كبرى لأمة فى طريق التحضر ... وما قيمة التعليم فى أمة إذن ، إذا كانت نتيجته تخريج زبائن للمشارب لا للمكاتب ؟! إن أرقى درس واهم كسب للطالب فى المدرسة ، ليس فى تلك المعلومات المحددة لأنها ستنسى حتما بعد حين ، ولكنهما فى غرس ملكة المطالعة التى ستلازمه فى كل حين ... لا خير ولا نفع فى أرقى المدارس والجامعات إذا خرج منها الطلاب يلعنون كتبهم ويختمون على رءوسهم ... بينما الطالب الذى ينشأ فيه حب المطالعة والاطلاع تنشأ فى نفس الوقت جامعة كبرى نفسه ، تزوده بالمعارف المتجددة طوال أيام حياته ... ذلك واجب المدرسة الأول : تعلمنا حب القراءة ... وتمرن عضلاتنا الفكرية على هضم أغذية العقل ... ثم تدفعنا إلى الحياة نزدرد ثمرات الذهن ...

قالت العصا : حقا .. إن الإنسان يولد زبونا بالفطرة لعسير الليمون ... ولكنه لا بد أن يعد إعدادا ليصير زبونا لعسير الذهن ! »

هـذا هو الحوار البديع الذى دار منذ أيام على صفحات « أخبار اليوم » بين صديقنا الفنان الكبير الأستاذ توفيق الحكيم وبين عصاه ... وأزمة القراء التى شغلت قلم الصديق فأجرت مداده بهذه الكلمات الطافحة بالمرارة والفياضة بالأسف ، مشكلة عرضنا لها بالأمس على صفحات الرسالة محددين أسبابها الأصيلة ودوافعها الطبيعية ، معبرين عن مظاهر الأسف والمرارة كما استشعرها الأستاذ الحكيم !

ولا نذكر أننا التقينا مرة — توفيق الحكيم وأنا — إلا وعرجنا على هذه المشكلة وخصصناها بأكثر ما ينقضى بيننا من وقت وأغلب ما يدور بيننا من حديث .. إنها مشكلة من مشكلات الساعة بلا جدال : جيل ينصرف عن القراءة المفيدة إلى فنون من اللهو والعبث لا تنفع ولا تفيد ، ويضيق بعصارة الفكر التى تطفىء ظمأ العقل وترطب جفاف القلب ليقبل على كل ما من شأنه أن يذبل نضارة العقول ويغلق منافذ القلوب ...

هذا الجيل مادا حدث له ، وماذا نفعل من أجله ، وكيف نهديه إلى مسالم الطريق ؟ إننا نستطيع أن ننفذ إلى مكامن الداء فى جسم هذا الجيل المريض ، ونستطيع أن نضع أيدينا على مصدره ونستطيع بعد هذا كله أن نصف العلاج الناجع والدواء المفيد .. نستطيع أن نفعل هذا الذى قلناه ، ولكن المشكلة التى تواجهنا ويتحول معها الأمل إلى يأس هى طبيعة المريض نفسه ، طبيعته العقلية والنفسية ، هذه الطبيعة التى لاتؤمن بقيمة الدواء ولا بجدوى العلاج ولا بنصائح الطبيب !!

وأين هو الطبيب المنتظر الذى يحمل الدواء الى المريض فى يد «والكرباج» فى أخرى ، حين يكون الكرباج هو السبيل الوحيد إلى الاقناع ؟! أن هو ليجرع المريض العنيد عصير الذهن بدلا من عصير الليمون ، فإذا امتنع عن تجرع الدواء ألهب ظهره بسوط الجلاد ؟! نحن محتاجون إلى عهد الكرباج ليقرأ الناس .. ولا شىء غير الكرباج يستطيع أن يقنعهم بأن الجد خير من الهزل ، وأن الثقافة أفضل من الجهل ، وأن النور أجمل من الظلام !

كل هذه الخواطر التى نسجلها فى هذا المكان حول أزمة القراء ، كنا ننتهى إليها وينتهى الأستاذ الحكيم كلما جمع بيننا لقاء .. ويقول الأستاذ الصديق ذات يوم وكأنما اهتدى إلى علاج : ألا يكون ارتفاع أثمان الكتب سببا من الأسباب الجوهرية فى انصراف الناس عن القراءة ؟ ونقول له رداً على ملاحظته المفلفة بإطار من الإيمان : لا نظن .. فالقارىء الذى يريد أن يبسط عقله لا يقبض يده ! ثم إن الكتب يا صديق ليست هي الشىء الوحيد الذى ارتفع ثمنه فى هذه الأيام ، كل شىء قد ارتفع ثمنه وغلا سعره ، ومع ذلك فما أكثر ما يقبل الناس ومنهم المتعلمون على الشراء ينفقون الجنيهات على المتعة الزائلة ويضنون بالقروش على المتعة الباقية .. ينفقون على متعة الجسم والنظر ويضنون على متعة الذهن والروح .. مائة قرش يدفعها الشاب الجامعى ثمنا لرباط رقبة ، وعشرون قرشاً يستكثرها ثمنا لأثر من آثار الأدب والفن ، ومن هنا عمرت محال «الكرافتات» وافقرت من روادها المكتبات !

ويهز توفيق الحكيم رأسه هزات المؤمن بما نقول ، ولكنه يريد أن يجعلها تجربة ليحكم فى ضوء الوقائع المادية لا الآراء النظرية .. ولم تمض أسابيع حتى أصدر الصديق مجموعتين من قصصه حدد لكل منهما ثمنا قدره عشرة قروش بدلا من خمسة وعشرين وعلى الرغم من أن توفيق الحكيم هو أكثر كتاب الشيوخ إقبالا من القراء ، فقد كانت نتيجة اليوم هى نتيجة الأمس .. عشاق فنه وحدهم هم الذين أقبلوا على شراء قصصه الجديدة ، نعنى أن القروش العشرة لم تجتذب قارئا جديدا لتضمه إلى قائمة قرائه المعجبين ! والسبب .. هو أن الذى يهوى القراءة ويعشق الاطلاع لا يهمه أن يكون ثمن الكتاب عشرة قروش أو مائة أما أولئك اللاهون والتافهون من رواد الراقص والمقاهى والحانات ، فلن يقرأوا ولو حددنا أثمان الكتب بالمليمات !!

هذه حقيقة آمن بها توفيق الحكيم بعد التجربة كل الإيمان .. ويقول لنا بعد أن عاد من رحلته الأخيرة إلى باريس : ما أعجب القوم هناك ! إن حياتهم حياة .. وحسبك أن العين قلما تقع على فتى أو فتاة من غير كتاب .. الكتاب دائما يطالعك فى أيدى الناس حيثما ذهبت : فى القهوة ، والبيت ، والشارع ، والمترو ، وحلبة السباق .. لا يكاد يصرفهم عنه لهو أو متاع ، فى بلد كل ما فيه لهو ومتاع . صدقنى ما أحسست بمدى الفارق بين الموت والحياة إلا بعد أن رجعت إلى مصر ، وقارنت بين حال القراء هنا وحالهم هناك !

ولم نكن محتاجين إلى أن يقص علينا الأستاذ الصديق هذا الذى رآه ، لأن بعض الحقائق تلمس بالعقل إلى عز لمسها على الأنظار والأسماع .. ومن هذه الحقائق الملموسة بالعقل أن القارىء الفرنسى يلتهم الكتب التهاما ليضيف إلى عمره أعمارا أخرى من طريق القراءة والاطلاع ، ولولا هذا لما كانت الطبعة التى بين أيدينا من أحد كتب سارتر هى الطبعة الثالثة والتسعين .. ولا ننس أن الطبعة الواحدة تقدر فى حساب الناشرين بعدد من الألوف !!

هذا فى فرنسا ، أما فى مصر ... فقد حدثنا الأستاذ الحكيم عن قصة صاحب المكتبة العامرة بالكتب فى أشهر ميادين القاهرة وكيف تجولت إلى حانوت المرطبات ... وعندما سئل الرجل فى ذلك أجاب : الناس لا يريدون اليوم عصير الذهن ... إنهم يريدون عصير الليمون ... ويا له من جواب ذلك الذى يعيد إلى الأذهان اسطورة نهر الجنون !

أنور المعداوى